المرأة وقضية الفلاح

بقلم الآنسة ابنة الشاطئ

حين أتحدث عن دور المرأة فى الإصلاح الريفى ، ينصرف ذهن الأكثرين من القراء إلى عمل محدود لا يتعدى الإرشاد إلى النظافة والعناية بالصغار ، وتلك مهمة ضئيلة يحسن القيام بها عامل مأجور ، ولكن وراءها مهمة أخرى جليلة نبيلة ، لا يحسن النهوض بها إلا فتيات كريمات نبيلات ، لأن فيها معنى من معانى الأنوثة بما تنطوى عليه من رحمة وحنان و إيثار .

من شأن المرأة وحدها أن تحس شقوة الفلاح ، وأن تهتز لمأساته الكبرى وتتأثر بمحنة الإنسانية فيه .

من شأن المرأة وحدها أن تثور على الشقاء الأليم الذى يخبط فيه إنسان منا وعامل مجاهد فينا ، وأن تنكر هذه الحياة الذليلة المريضة التى فرضت على الفلاح قرونا طوالا فقذفت به وراء إنسانيته و إنسانية الناس جميعا .

من شأن المرأة ، حين تمر بتلكم الأشباح الآدمية التى تنتشر عبر الوادى عاملة مجاهدة ، أن تقف لحظة لتنصت إلى النداء الخافت الذى يصدر عن الأشباح الهزيلة الشاحبة ، ولكن الرجال عنه فى شغل ، لأن لهم من خطير الأمور ما يعنيهم أكثر من العطف على الأشقياء المحرومين .

فالمهمة الأولى للمرأة إذن ، أن تحس شقوة الفلاح وتجاهد فى إذاعتها فى نفوس الناس ، وتلك مسألة لا بد منها لنجاح قضية الفلاح ، ذلك لأن هذه القضية تطلب رد الحقوق الشرعية إلى الفلاحين ، وذلك عبء يحسه الناس ثقيلا مرهقا لأنه يشمل بضعة ملايين من مواطنينا التعساء . وقد أساغ الناس مأساة الفلاح قرونا من الزمان ، وهم لا يأبون أن يسيغوها قرونا أخرى ، لكى يعفوا نفوسهم من عبئها المرهق الثقيل .

كل جيل يشفق من حمل عبء الإصلاح ، ثم يتغافل عنه زاعما أنها خطيئات الأجيال ، وألا بأس على الفلاح من الانتظار قرنا آخر ، وهو الذى قد أطاق الشقاء قرونا .

كل جيل يرفض أن يصحح أخطاء من سبقوه ، ومن ثم بقيت قضية الفلاح حيث تركها الزمن منذ بزغ التاريخ ، سافرت الينا عبر القرون ، حتى انتهت الينا ثقيلة مرهقة .

ولن ينهض بعبء الإصلاح والتفكير ، إلا جيل يحس شقوة الفلاح وينكرها ، ويأبى أن يسيغ هـذه المحنة الإنسانية الكبرى . والإحساس بشقاء الفلاح أمر تنهض به الأنوثة الكريمة الرحيمة ، وتعلنه إلى الناس ، لتبشر بالدعوة الإنسانية إلى التكفير عن خطيئات القرون .

هـذا عمل تنهض به النساء ، لأنه يتصل بالعاطفة ويتكئ على العاطفة ، والعواطف لا دخل لها فى حساب الرجال ، بل لعلها عندهم مظهر من مظاهر الضعف ، أو من أحلام الشعراء وأوهام الحالمين !

هذه العواطف الإنسانية هى صاحبة الدور الأول فى قضية الفلاح ، لأنها متى أثارت فى الناس صدق الشعور بشقاء هذا الإنسان ، ثارت نفوسهم بشعور نبيل ، يرفض أن يسيغ ما أساغته الأجيال السابقات ، ويستجيب للدعوة الإنسانية التى تعلن حق الفلاح وتطالب بردّه إليه ، بعد أن سلبته إياه العصور والأجيال .

لو أن جيلا مضى قد أحس شقوة الفلاح ، لفعل شيئا فى سبيل إنقاذه من محنته . ونحن نحسن الظن بهذا الجيل ، ونرجو أن يكون للعواطف الإنسانية دخل فى حسابه ، تلك العواطف تبشر بها من نساء الجيل من ثار قلبها لشقاء الفلاح واهتز لمأساته ، يومئذ يستجيب الرجال إلى الدعوة ، ويبرئوا مصر من ذلكم المرض الذى يشوّه مجد ماضيها ، ويثقل خطاها فى فجر عهدها الجديد .

لم تفعل الأجيال السابقة شيئا للفلاح ، لأن المرأة لم تستطع من قبل أن تحدّث عن شقاء الفلاح ، وتعلن عن مأساته ، وتوقظ الضمائر الإنسانية المعطلة .

إن وقت العمل فى المسألة الريفية لم يحن بعد ، لأننا مازلنا نطيق ما لا يطاق ، ونسيغ الشقاء والمرض والذل فى مواطنينا من بنى الإنسان ، ولن نستطيع بهذا الشعور المعطل أن نفعل للفلاح شيئا . إنما يحين وقت العمل ، حين تقوم المرأة فى كل بيت ، وفى كل قرية ، وفى كل مدينة ، بإيقاظ عواطفنا الإنسانية المعطلة ، فتتألم لشقوة البائس ، وتهتز لصيحة الجائع المحروم ، ويأبى أحدنا أن تصيبه التخمة وعلى مقربة منه مخلوق يموت من الجوع .

عندئذ فقط يحين وقت العمل ، ويجوز لنا أن نتطلع إلى الغد المرجو فى ثقة و إيمان ، فتبرأ مصر من مرضها العضال ، وتتجه الجهود إلى إصلاح القرية و إنهاض الفلاح .

وهنا يكون للمرأة دور آخر فى حركة الإصلاح، ذلكم هو دور الإرشاد الاجتماعى فى الريف، وتنظيم الحياة البيتية وحسن توجيهها. وذلك أمر لا يستطيع النهوض به غير الفتيات الصالحات، لأن الأبواب والقلوب فى الريف ؛ تفتح للفتاة دون الفتى ، والصدور تتسع لتقبل نصائحها وإرشادها، أكثر مما تتسع لقبول فلسفة الشبان ، ومن ثم كانت محاربة القذارة والمرض والفقر والجهل فى البيت الريفى ، تتم على يد المرأة الفلاحة بإرشاد الفتاة المثقفة الكريمة .

تدخل الفتاة الدور دخول صديقة محبة ، تقدم خدمتها لأهل الدار ، وتضع تجاربها لإسعادهم ، وهناك فى الداخل ، ترشد ربة البيت إلى واجبها كزوجة وأم ، وتعلمها طريقة تنظيف البيت فى أسلوب بسيط مؤثر. ولها أن تعتمد على الصداقة والحب فى تنفيذ رغباتها ، دون أن تفرض أوامرها فرضا . ومتى ظفرت الفتاة المرشدة بمكان من قلوب الفلاحين ، أصبحت كلمتها أمرا لا يخالف ورغبتها غالبة لا تعصى .

إن الفتاة تملك للفلاح الشيء الكثير، ذلك أمر نؤكده ونؤمن به، فقد جربناه فى مزارع الجمعية الزراعية ببهتيم ، ورأينا كيف تستطيع الفتاة — ببساطتها وكرمها وتواضعها — أن تهيء الفلاح للانتفاع بالجهود الموفقة التى بذلت لإصلاحه هناك ، وأن تعده للاندماج فى البيئة الصحية الصالحة التى هيأتها الجمعية لزراعها .

ألا إن الريف فى حاجة إلى آلاف الفتيات الكريمات اللائى تربطهن بالريف صلة أسمى من صلة الوظيفة ، فتيات ينذرن لأداء واجبهن الإنسانى غير مسوقات ولا مأجورات ، فتيات بسيطات كريمات يعرفن الريف ويعطفن على ساكنيه ، ويسعين لتخفيف شقائهم وإشعارهم بإنسانيتهم .

ألا فلتنهض الفتيات فى كل بيت وكل قرية ومدينة ليبشرن بالدعوة الإنسانية الكريمة، ويوقظن الضمير الإنسانى المعطل ، ثم فليندمجن بعد ذلك فى قافلة الإصلاح عاملات مرشدات ، يؤدين حق الله والإنسانية والوطن ، لأولئكم المواطنين الأذلة التعساء .

ابنة الشاطئ